حماسة الشَّعب - ١٢ -

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال : لمَّا رجع سعد باشا من أوربة في سنة ١٩٢١ ، كانت الأمَّةُ في استقباله كأنَّها طائرٌ مدَّ جناحيه ، لا خلافَ لشيءٍ منه على شيءٍ منه ، بل كلُّه هو كلُّه ؛ وكانت المعارضة في الاستحالة يومئذٍ كاستحالة وجود رُقعةٍ في ريش الطَّائر .

على أن ثوبَ السياسة المصريَّة كثيرُ الرُّقع دائماً بالجديد ، والخَلَق ، فرقعةٌ من المعارضين ، وأخرى من المتعنِّتين ، وثالثةٌ من المتخاذلين ، ورابعةٌ من المعادين ، وخامسةٌ ، وسادسةٌ ، وسابعةٌ من الحاسدين ، والمنافسين ، والمختلفين لشهوة الخلاف ؛ ورقاعٌ بعد ذلك ممَّا نعلم ، وما لا نعلم ، فإنَّ من العجيب : أنَّ هذا الجو الذي لا يتقلَّب إلا بطيئاً ، يتقلَّب أهلُه بسرعةٍ ، وهذه الطَّبيعة ؛ التي لا تكاد تختلف لا يكاد أهلها يتَّفقون .

ولكن سعداً - رحمه الله - رجع من أوربة رجعةَ الكرامة لأمَّةٍ كاملةٍ ، ففاز بأنَّه لم يخسر شيئاً من الحقِّ ، وانتصر بأنَّه لم يُهزم ، ودلَّ على ثباته بأنَّه لم يتزعزع ، وذهب صَولةً[1] ، ورجع صَولةً ، وعزيمةً ؛ فكان إيمانُ الشَّعب هو الَّذي يتلقَّاه ، وكانت الثَّورةُ هي الَّتي تحتفل به ، وبطلت العللُ كلُّها فلم يجد الاعتراضُ شيئاً يعترض عليه ، واتَّفقت الأسبابُ ، فاجتمعت الكلمة ، وظهر سعدٌ كأنَّه روحُ الأمَّة متمثِّلاً في قدرةٍ ، حاكماً بقوةٍ ، متسلطناً بيقينٍ .

نعم لم ينتصر البطلُ ، ولكنَّ الأمَّة احتفت به ؛ لأنَّه يمثِّل فيها كمالاً من نوعٍ آخر ، هو سرُّ الانتصار ؛ فكانت حماسة الشَّعب في ذلك اليوم حماسةَ المبدأ المتمكِّن : يُظهر شجاعةَ الحياة ، وفَوْرةَ العزائم ، وفضيلةَ الإخلاص ، وشدَّةَ الصَّولة ، وعنادَ التَّصميم ؛ ويثبت بقوَّة ظاهره قوَّةَ باطنه ، وكان فرحُ الأمَّة عِناداً سياسيّاً يفرح بأنَّه لا يزال قويّاً لم يَضْعُف ، وكان ابتهاجُها مجداً ، يشعر بأنَّه لا يزال

(١) « صولة » : هي السطوة في الحرب ، والقدرة ، والقهر .

وافراً ، لم يُنْتَقَص ، وكان الإجماعُ ردّاً على اليأس ، وكانت الحماسةُ ردّاً على الضَّعف .

ابتعثت صولةُ الحياة في الشَّعب كلِّه ، وابتدأ المستقبلُ من يومئذٍ ، فلو نزلت الملائكةُ من السَّماء في سحابةٍ مُجَلْجِلةٍ يُسْمَعُ تسبيحُهم ليؤيدوا سعداً ؛ لما زادوه شيئاً ، فقد كان محلُّه من القلوب كأنَّه العقيدة ، وكان التَّصديقُ مبذولاً له كأنَّه الكلمة الأخيرة ، وكانت الطَّاعة موقوفةً عليه كأنَّه الباعثُ الطَّبيعيُّ ، وكان البطلُ في كلِّ ذلك يشبه نبيّاً من قِبَل أنَّ كلاً منهما صورةٌ كاملةٌ للسُّموِّ في أفكار أمَّةٍ .

* * *

قال صاحبُ السِّرِّ : ورجع الباشا من القاهرة ، وقد رأى ما رأى من مسامحة النُّفوس ، وصحَّةِ العهد ، واجتماعِ الكلمة ، وإعدادِ الشَّعب للمِراس والمعاناة ، فقال :

تا لله ! لقد أثبت (سعدٌ) للدُّنيا كلِّها : أنَّ مصرَ الجبَّارة متى شاءت بَنَتِ الرِّجالَ على طريقة الهرم الأكبر في العظمة ، والشُّهرة ، والمنزلة ، والقوَّة . ولقد صنع هذا الرَّجلُ العظيم ما تَصنع حربٌ كبيرةٌ ، فجمع الأمَّةَ كلَّها على معنىً واحدٍ لا يتناقض ، ودفعها بروحٍ قوميَّةٍ واحدةٍ لا تختلف ، وجعل عِرقَ السِّياسة يفور ، كما يفور العرقُ المجروحُ بالدَّم .

إنَّ هذه الأمَّةَ بين شيئين لا ثالثَ بينهما : إمَّا الحزمُ إلى الآخر ، وإمَّا الإضاعة . ولا حزم إلا أن يبقى الشَّعبُ كما ظهر اليوم : طوفاناً حيّاً ، مُسْتَوِيَ الطَّبيعة ، مندفع الحركة ، غامِراً كلَّ ما يعترضه ، إلى أن يُقضَى الأمر ، ويقول أعداؤنا : يا سماء أقلعِي !

هكذا يعمل الوطنُ مع أهله كأنَّه شخصٌ حيٌّ بينهم ، حين يستوي الجميع في الثِّقة ، ويتآزر الجميعُ في الأمل ، ويشترك الجميعُ في العطف الرُّوحيِّ ، ولا يبقى لجماعةٍ منهم حظٌّ في رغبةٍ غيرِ الرَّغبة الواحدة للجميع ، وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله .

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسيّاً ، لا شأنَ له إلا بفَضَلات السِّياسة ، ولا عملَ له في أزهارها ، وأثمارها ، وعِطْرها ، وحَلواها ؛ فأسمعهم الشَّعبُ

اليوم طنينَ النَّحل ، وأراهم إبَرَ النَّحل ؛ ليعلموا : أنَّ الأزهارَ ، والأثمارَ ، والعطرَ ، والحلوى هي له بالطَّبيعة .

وكانوا يتخرَّصون : أنَّ مذهبنا في الحياة لمصلحة المعاش فقط ، وأنَّ المصريَّ حاكماً ، أو محكوماً لا يَمدُّ آماله الوطنيَّةَ إلى أبعدَ من مدَّة عمره سبعين ، أو ثمانين سنة ، فإذا أطلقوا أيدينَا في حاضر الأمَّة أطلقنا أيديَهم في مستقبلها . ومن ثمَّ طمعوا أن يكون الحقُّ النَّاقصُ في نفسه حقّاً تامّاً في أنفسنا لهذه العلَّة ؛ وحسبوا أنَّ السِّياسيَّ المصريَّ لا يتجرأ أن يقول ما يقوله السِّياسيُّ الأوربيُّ : من أنَّه لا يخشى الموتَ ، ولكنَّه يخشى العار . فإنَّه إذا مات وحده ، وإذا جلب العار جلبه على نفسه ، وعلى أمَّته ، وعلى تاريخ أمَّته ، بَيْدَ أنَّ سعداً قالها ؛ وفي مثل هذا قد يكون قول : (لا) معركة .

وها هي ذي معركةُ اليوم التَّاريخيَّة ، فإنَّ الذرَّاتِ الحيَّةَ ؛ التي تُخلق من دمائنا نحن المصريين قد ثارت في هذه الدِّماء ، في هذا النَّهار ، تعلن : أنَّها لا ترضى أن تولَد مقيَّدةً بقيود .

أتدري ماذا عرضوا على سعدٍ ؟ إنَّهم عرضوا عليه ما يشبه في السُّخرية طاحونةً تامَّةَ الأدوات ، والآلاتِ من آخر طرازٍ ، ثمَّ لا تُقدَّم لها إلا حبَّةُ قمحٍ واحدة ؛ لتطحنَها . . . . نتيجةٌ تسخر من أسبابها ، وأسبابٌ تهزأ بالنَّتيجة .

إنَّ أوربة لا تحترم إلا مَنْ يحملها على احترامه ، فما أرى للسِّياسيين في هذا الشَّرق عملاً أفضلَ ، ولا أقوى ولا أردَّ بالفائدة من إحياء الحماسة في كلِّ شعبٍ شرقيٍّ ، ثمَّ حياطتِها ، وحسنِ توجيهها ؛ فهذه الحماسةُ الشَّعبيَّةُ الدَّائمةُ القويَّةُ البصيرةُ ، هي قوَّةُ الرَّفض لما يجب أن يُرفَض ، وقوَّةُ التَّأييد لما يجب أن يُقْبَل ، وهي بعد ذلك وسيلةُ جمع الأمرِ ، وإحكامِ الشَّأن ، وإقرارِ العزيمة في الأخلاق ، وتربية الثِّقة بالنَّفس ، وبها يكون إذكاءُ الحِسِّ ، وتعويده إدراكَ الأعمال العظيمة ، والتحمُّسَ لها ، والبذلَ فيها .

وما علَّةُ العلل فينا إلا ضعفُ الحماسة الشَّعبية في الشرق ، وسوءُ تدبيرها ، وقبحُ سياستها ؛ وإنَّا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم ، وأساليبهم ، وسياستهم ، وعلومهم ، وفنونهم ؛ فنأخذ كلَّ ذلك بروحنا الفاترة في خمولٍ ، وإهمالٍ ، وتواكُلٍ ، وتَفرُّدٍ بالمصلحة ، واستبدادٍ بالرَّأي ، فإذا دينارُهم في أيدينا درهم ،

وإذا نحن وإيَّاهم في الشيء الواحد كالنَّحلة والذُّبابة على زهرةٍ .

ليست لنا حماسةُ الحياة ، وبهذا تختلف أعمالُنا ، وأعمالُهم ، وذلك هو السِّرُّ أيضاً في أنَّ أكثر حماستنا كلاميةٌ مَحْضةٌ ؛ إذ يكون الصُّراخُ ، والصِّياحُ ، والتشدُّقُ[1] ، ونحوُها من هذه المظاهر الفارغة ؛ تنقيحاً للطَّبيعة السَّاكنة فينا ، وتنويعاً منها بغير أن نَجهدَ في التَّنقيح ، والتنويع . ومن هذا كانت لنا أنواعٌ من الكلام ينطلق اللِّسانُ فيها للخروج من الصَّمت لا غير . . . ومنه كثيرٌ من هذا الهُراءِ السياسيِّ ؛ الذي يدور في المجالس ، والأحزاب ، والصُّحف .

إنَّ حماسة الشَّعب لا تكون على أعدائه فقط ؛ بل على معايبِه أيضاً ، وعلى ضَعفِه بخاصَّة ، والشَّعبُ الفاترُ في حماسته لو نال حقَّين مغصوبين ؛ لعاد ، فَخَسِر أحدَهما ، أو كليهما ، أمَّا الشعب المتحمِّس القويُّ في حماسته ، فلو غُصِبَ حقَّين ، ونال أحدَهما ؛ لعاد ، فابتَزَّ الآخر .

* * *

(١) « التشدق » : تشدَّق في كلامه : لوى شِدْقَهُ تفصُّحاً ، وتوسَّع في الكلام من غير احتياط واحتراز .